

(جامع يلغا)

المملوكي في ساحة المرجة بدمشق

بناه سيف الدين يلغا سنة 748 هجري / 1347 ميلادي

وتعاقب عليه عصور ونفوس وأرواح تجاهد للمباهاة المحمدية

الباحثة نبيلة القوصي

أخي السائح الدمشقي:

قال المصطفى صلى الله عليه و سلم: "من بنى مسجداً بيتني به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة" و قال: "عُرِضت علي أجور أمتي، حتى القذارة يخرجها الرجل من المسجد، و عُرضت علي ذنوب أمتي فلم أرى ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها الرجل ثم نسيها".

و لقد أثنى الله عز و جل على من يعمر المساجد، و إن من عمارتها تعاهدها بالترميم و الصيانة، فيدخل هذا العمل في مجال الصدقة الجارية، فقد قال الحبيب المصطفى:

" سبع يجري للعبد أجرهن و هو في قبره بعد موته: من علم علماً، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته"، و قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ببناء المساجد في الدور وأمر بها أن تنظف و تطيب.

فالمساجد ليست أجورها في البناء فقط و إنما صيانتها و المحافظة عليها بتعاقب السنين و العصور، لأن في ذلك إعمار للطهر و التزكية في القلوب و النفوس قبل الأرض، فالبناء الروحي هو الأساس في الحضارة الإنسانية.

و جامع يلغا في وسط مدينة السلام دمشق يدعونا لرحلة سياحية بين أرجائه ، مفاخرًا مباهياً بعد ترميمه على أيدي أهل البر و الخير من أهل الشام، أن تعالوا و استلهموا العبرة و العظة، فما فائدة النظر من دون تفكر و تأمل كيف يجب الله و يرضى للنفوس أن تحيا مع أرواحها بسلام، فهيا معاً ...

أخي القارئ المتأمل:

حكم المماليك مناطق واسعة من البلاد العربية، ودام حكمهم لدمشق عدة قرون، مما ساعد على تبادل التأثيرات الحضارية في جميع النواحي، فازدهرت الحركة العمرانية والفنون، وكثرت الآثار العمرانية على الأرض وما تزال شاهداً قائماً ليوم العرض والجمع الذي لا ريب فيه.

من هذه العمائر جامعٌ في وسط دمشق وخارج سورها القديم، يدعى باسم جامع يلغا، تعالوا نتعرف عليه بأرواح تنشد السمو والرقى، لتلمس نسائم الشام المباركة، ولو بعيد حين.

جامع يلغا :

قال النعمي في كتابه الدارس، و ابن عبد الهادي في كتابه ثمار المقاصد:

يلغا على شط نهر بردى تحت القلعة، ونحن اليوم نشاهده في ساحة المرجة بمحلة البحصة في دمشق، حيث يمثل امتداداً للإبداع المعماري الذي بلغ أوجه في العصر المملوكي الممتد قرابة ثلاثة قرون، فالجامع تحفة معمارية بديعة البناء، أضحت اليوم أجمل وأروع بجهود محبي الشام دمشق.

و سمي المسجد بجامع يلبغا نسبة إلى والي الشام الأمير المملوكي (سيف الدين يلبغا)، و هو من كبار أمراء المماليك عند السلطان محمد بن قلاوون، و بنى الجامع عام 748 للهجرة - 1347 للميلاد على أطراف المدينة، و جلبت الحجارة للبناء من دمشق و خارجها و من جبل قاسيون، ويُعدّ أحد الجوامع الكبرى التي بُنيت على نسق الجامع الأموي خارج سور المدينة كجامع الحنابلة وجامع التوبة وجامع تنكز.

قال الذهبي في العبر: أن الأمير (سيف الدين يلبغا يحياوي الناصري) عُين نائباً عن الشام في شهر صفر سنة 745 للهجرة.

ولما عاد الأمير يلغا إلى دمشق بغير قتال، عمّر " قبة " عند موضع خيمته عند مسجد القدم سماها (قبة مصر أو النصر) التي كانت تعرف (بقبة يلغا).

و قال الأسدي في ذيله: في سنة 839 في الحرم في يوم السبت الرابع والعشرين منه رأينا القبة التي كانت مشهورة بقبة يلبغا، قد أزيلت، وبني موضعها سقف على المسجد .. فعل ذلك الأمير محمد بن منجك، وكان سبب ذلك أن الناس كانوا يظنونها قبة يلبغا وأن الزاوية له، وإنما ذلك للأمير محمد بن منجك، وأخبرنا الدكتور محمد أسعد طلس في كتاب ابن عبد الهادي، واصفاً أبواب الجامع فقال: للجامع ثلاثة أبواب:

باب شرقي يطل على جوزة الحدباء أمام السوق العتيق، ويسمى سابقاً (باب الحلق) كما ورد عند أبي البقاء بن محمد البدري.

وباب غربي يطل على جادة البحصّة، وكان يُنحدر منه في درج الى أول الوادي ويمسى باب المنزه.

وباب شمالي مغلق تحت المئذنة، وكان يخرج منه الى الميضأ، ويسمى سابقاً (باب الفرج).

وللأبواب الثلاثة زخارف ومقرنصات حسنة، ولكن الباب الرئيسي هو الشرقي، والى جانب الباب الأيمن شباكان يطلان على الصحن والى الجانب الأيسر اثنان يطلان على القبليّة. ويشغل الصحن مساحة الجانب الشمالي من المساحة العامة، ولهذا الصحن أروقة تحيط بالصحن من جهاته الشرقية والغربية والشمالية، وهي شبيهة بأروقة الجامع الأموي بدمشق، من حيث أنها مبنية على قناطر محمولة على أعمدة وعضائد.

محراب الجامع:

ونستطيع القول أن قبليّة الجامع (حرم بيت الصلاة) هي نسخة مصغرة عن قبليّة جامع بني أمية، والمحراب من الرخام المزخرف الحسن الصنع، ويشبه إلى حد التطابق محراب الجامع الأموي الكبير بدمشق، وكان بجانبه منبر خشبي بديع النقش، وإطار من الزخارف.

حرم بيت الصلاة (القبليّة) له جبهة حجرية شمالية عريضة، فيها اثنا عشر باباً تطل على الصحن.

أما **المئذنة** فقد بُنيت على الجدار الشمالي للمسجد، مربعة الشكل، متقابلة مع مدخل بيت الصلاة مباشرة، وقد جُددت أكثر من مرة وهي مئذنة حجرية ضخمة ذات جذع مربع متكشف في عمارته

ضخم في محيطه، وشاهقة الارتفاع في جذعها السفلي، تعلوها شرفة خشبية وحيدة مثمثة الأضلاع خالفت شكل الجذع، تغطيها مظلة خشبية أخذت شكل الشرفة، ومتوجة بذروة مخروطية الشكل ن وبها ورمح وثلاث تفاحات وهلال مغلق إلى الأعلى.

أخي القارئ المتأمل:

بعد جولة بين سطور التاريخ، نترككم و الوصف التصويري من خلال عدسة بعض المحبين، و تستطيعون ملاحظة قبل و بعد الترميم كيف أصبح الجامع بحلة جديدة ، كما نترك لكم الدعاء بظهر الغيب أن يجعلنا الله عز وجل و إياكم من الذين يستمعون و ينظرون و يستلهمون أجمل العبر و العظات التي تقربنا من مجلس الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم في يوم المباهاة المحمدية.

المصادر و المراجع:

. ثمار المقاصد / لابن عبد الهادي، ت: 909 هجري.

. الدارس في تاريخ المدارس / النعيمي، 978 هجري.

. العمارة العربية الإسلامية / الريحاوي

